المرافعة الأولى -2-

الفصل الثاني: المصادر الأولية للمدنية

المقدمة:

سعى القائد عبد الله أوجلان في الفصل الثاني من مرافعته الأولى، إلى سرد وتفسير المؤثّرات الأساسية التي مهّدت لظهور المدنية الراهنة، بأبعادها التاريخية والجغرافية، وذلك لأن السبيل لمعرفة مجتمع ما، يمر من معرفة ظروفه وشروطه التاريخية والجغرافية.

أسهب في هذا الفصل في الحديث عن أهمية قوس جبال طوروس –زاغروس، ودوره المهم في خدمة البشرية، وذلك لأنه كان باب التجمع الرئيسي في الانطلاق من أخدود افريقيا الشرقية (أو ما يسمى بالوادي المتصدع الكبير) حيث شهد هذا الأخدود ولادة البشرية، ومراحل تطورها الطبيعي الأولى كمنطقة نواة، ومنه انتشرت المجموعات البشرية الأولى إلى جبال طوروس –زاغروس، والعالم.

وقد تعمّق أيضاً في شرح قضايا انتشار اللغة والثقافة الآرية، موضحاً أن القوس الذي ترسمه سلسلة جبال طوروس-زاغروس، أي المنطقة المسماة ب (الهلال الخصيب)، هي المنطقة النواة التي شكلت مركز ولادة اللغة والثقافة الآرية، ومفسراً الحياة والتطور الاجتماعي النابعين من الهلال الخصيب تفسيراً سليماً، مرتكزاً في ذلك على مدى تأثير البعد الزماني والمكاني الاجتماعي المعين على نمط حياة معينة.

أهمية قوس جبال طوروس –زاغروس، ودوره في خدمة البشرية:

يُعتبر قوس جبال طوروس –زاغروس باب التجمع الرئيسي في الانطلاق من أخدود أفريقيا الشرقية، ومركز الانتشار إلى أرجاء العالم، حيث لعب دوراً مهماً في خدمة البشرية، مما جعلها تدين له بالشيء الكثير وذلك للأسباب التالية:

1-إن هذا القوس هو نهاية الطريق الطبيعية في الأخدود، ويتم المجيء إليه على شكل موجات متتالية، حيث يشكل الطريق المثالية التي تبتدئ من السواحل الشرقية للبحر المتوسط، لتمر بالقوس الذي تشكله جبال طوروس –زاغروس (الهلال الخصيب)، وهذه الطريق ذات أراض خصيبة خيّرة، تتحول فيها الحياة إلى حياة مجتمعية راقية.

2-تمتاز منطقة قوس جبال طوروس –زاغروس بمناخ ملائم لعيش المجموعات البشرية، فهي تحتوي عدداً جماً من النباتات، والفواكه، والثمار على شكل حقول

طبيعية، وهي غنية بحيوانات الصيد، وتتميز أيضاً بوجود كهوف مثلى للأمان، وبعدد كبير من الأنهار الغزيرة والينابيع الدفّاقة، كل هذه المميزات حولتها إلى ساحة لتكون ثاني ميدان مهم لتجمّع، وتكاثف النوع البشري بعد (أخدود) أفريقيا الشرقية، ولتصبح العش المهيّأ لفقس وتفريخ التطور الحضاري في تاريخ البشرية.

3-حدثت تطورات كبيرة في هذه الساحة على أساس اللغة الرمزية والتي أدت إلى تشكيل الهويات المتمايزة ، والمتجلية لأول مرة ، وذلك لأن الانتقال من التفاهم بوسيلة بدائية كلغة الإشارة ، إلى التفاهم عبر لغة الرموز ، قد احتوى طاقات كامنة عظمى للتطور ، فنشوء مساحة لغوية واسعة ، قد منح النوع الإنساني فرصاً كبرى لتحقيق المجتمعية ، وحماية الذات ، وتأمين القوت ، وربما كان هذا أعظم ثورة في التاريخ لم تكتشف ، ولم يطلق عليها اسم بعد، لذا ، قد يكون من الأنسب تسمية أول ثورة عظمى ب (ثورة اللغة)، لأنه ما من ثورة خدمت المجتمعية في هذه الجغرافيا ، بالقدر الذي فعلته هذه الثورة ، فكل يوم يشهد صياغة مصطلح مقدس جديد بشأن النباتات ، وحيوانات الصيد المكتشفة ، والانتقال إلى الاستقرار الأقرب إلى نظام المنازل ، وعيش المواسم الأربعة بأفضل أحوالها ، وكلما صيغ ذلك بأكمله على نحو مصطلحات، تشكلت اللغة المشتركة للمجموعات على نطاق واسع .

دور الساميين والآريين في عمق التاريخ:

تميزت الصحراء الكبرى ، والبادية العربية قبل عشرة آلاف سنة ، بأمطار غزيرة ، وخضرة متوفرة ، وقد تقاطعت هذه الظروف الملائمة مع تطور ثقافة الرعي ، وبالإضافة إلى ذلك ، يتجسد التطور العظيم الآخر في بروز المجموعة اللغوية السامية (تنقسم اللغات السامية إلى ثلاث مجموعات :1-الشرقية :الأكادية ،2-الغربية :العمورية ،الأغورية ، الكنعانية ، الآرامية،3-الغربية والجنوبية : اللغات العربية الجنوبية ، الإثيوبية، الأمهرية) المتفوقة على البنى اللغوية البدائية المتواجدة في أفريقيا ، وما الثقافة السامية في مضمونها سوى (ثقافة رعي)، حيث حظي الرعي -حينئذ – بأهمية قصوى ، لدرجة أن الإرث الثقافي العظيم المتكون بشأن العديد من الحيوانات ، كالجمل والغنم والماعز ،لايزال مستمراً إلى الآن ، وتأسيساً على ذلك ، نلاحظ أن الأثنية(القبيلة) قد تشكلت لتكتسب هوية متميزة ومختلفة ، وما الحفاظ على سريان ثقافة الأثنية على نحو وطيد ومتجذر إلى الآن ، إلا برهانٌ قاطع على هذا التطور ، وبالمستطاع العثور على الكثير من تأثيرات هذه الثقافة في العديد من مفردات الحضارتين السومرية والمصرية ، وكأن الثقافة السامية تركت بصماتها الراسخة ، لتكون أثراً ممهوراً على صفحات التاريخ لأول مرة ، ارتباطاً بالمناخ الذي ظل ملائماً حتى قبل ستة آلاف عام ، لتنتشر في مساحات واسعة ، بدءاً من الصحراء الكبرى إلى شرقي الجزيرة العربية ، وصولاً إلى ساحات

الأراضي الشمالية الخصبة الصالحة للزراعة ، ومن هنا تشكل الثقافة السامية استمراراً ، ومستوى أرقى للثقافة البارزة في الأخدود الكبير بأفريقيا الشرقية .

ولهذا يمكن تقييم هذه الثقافة ،كأولى القبائل المستولية على الحضارتين السومرية والمصرية في التاريخ باسم قبائل الآراميين ، و العابيرو (أي الأناس المُغْبَرّين الآتين من الشرق والغرب) أكثر من اعتبارها معينة في تكوينهما ، وبالمستطاع القول :إن الساميين كانوا كياناً مهماً جداً في فجر التاريخ ، وكأن دويّ خبطة أقدامهم كان هداراً ، أما عجزهم عن تخطي الأراضي الصالحة للزراعة في الشمال ، فربما يعزى إلى تحقق تطور ثقافي أكثر تفوقاً مما هم عليه هناك ، وقد يكون من الأنسب وصف هذه الكيانات ، التي يمكن اعتبارها ثقافة انتقال متدرج نحو الزراعة ب(ثقافة الحقول) على وجه العموم ، في حين أنه يمكن نعت أصحاب هذه القوى الاجتماعية المسماة تاريخياً ب(الآريين)،ب(أصحاب الحقول)أو (أصحاب الأرض)،فلفظ آري يشير إلى أصحاب أول هوية ثقافية في هذه الأراضي ، ويعني في الكردية (التربة ، الأرض ، الحقل) ، ولذلك يمكن اعتبار الآريين بأنهم مبدعو الزراعة ، كونهم أول من بدأ بفتح الأراضي الواقعة شمالي الساميين للتطور الزراعي ، وفي مقدمتها قوس جبال طوروس – زاغروس كبقعة نواة .

وكان لطبيعة المناخ وبنية التربة الخصبة والغطاء النباتي والتنوع الحيواني ، دور في إنجاز هذا التطور ، فبينما انحصرت الزراعة في المناطق السامية ضمن عدد محدود من الواحات ، حيث اقتصرت على زرع أنواع قليلة من الأشجار كالنخيل ،فقد كانت أراضي القوس (الهلال الخصيب) صالحة لتكتنفها الحقول من جميع أطرافها ، ومناسبة إلى أقصى حد لزراعة الكثير من الثمار والخضروات :
كالزيتون ، الفستقيات ، البلوط ، الكروم ، العرعر، والحبوب ، علاوة على أنها كانت ساحة تتجول فيها العديد من الحيوانات الوحشية القابلة للتدجين على شكل قطعان كبيرة تشمل أنواعا عديدة ، وفي مقدمتها الغنم والماعز والبقر والخنازير والكلاب والقطط ، وبالإضافة إلى الغابات الواسعة على مرتفعات الجبال ، ومرور الفصول الأربعة بأفضل حالاتها هناك ، أما الأمطار فكأنها ري منتظم ، وضفاف الكثير من الأنهار والينابيع ملائمة للاستقرار والاستيطان ، ومن هنا ،وفي ظل كل هذه الظروف المناسبة ، فمن الطبيعي ترقب (بزوغ فجر التاريخ)هناك .

وهكذا، وبعد اللغة السامية، تكونت (مجموعة اللغة الآرية) المتميزة بغنى زاخر من المفردات، يفوق النطاق المحدود للغة الرعوية لدى الساميين، ويضاهيها بأضعاف مضاعفة، وكأنه بذلك قد تمّ تعبيد الأرضية الأساسية لذاكرة الإنسانية التي لن تضيع.

فموطن ولادة ونشوء مجموعة اللغة الآرية، هو المنطقة النواة للهلال الخصيب، وليس- كما يعتقد - بلاد الهند وأوروبا، ومناطق التنقل المتوسطة بينهما (شمالي البحر الأسود، السهوب الروسية، الهضاب الإيرانية).

أهمية دور المجموعة اللغوية الثقافية الآرية عبر التاريخ:

1-للمجموعة اللغوية الثقافية الآرية دور في تكوين اللغة الرمزية ، وفي تشكيل الركيزة الأولية للبنية التحتية لثقافة جذرية ، وهذا أمر مرتبط بالشروط التاريخية والجغرافية ، وتعبر فترة ما بين أعوام 10000ق.م - 4000ق.م على وجه التقريب عن الحقبة الطويلة التي نضج فيها تمأسس هذه اللغة والثقافة ، حيث اخترعت شتى أنواع الفخاريات ، المحاريث الزراعية ، طقوم الحيوانات ، العجلات ،آلات النسيج والحياكة ، والمطاحن اليدوية ، علاوة على تأسس الفن والدين آنذاك ، أما وفرة الغلال النباتية والحيوانية ، فكانت سبباً في الزيادة الملحوظة للتعداد السكاني ، هذا ولا يقتصر الأمر على صنع الفؤوس ،السكاكين ، الطواحين ، العجلات ، الأبنية المعمارية وغيرها من الآثار الفنية والدينية باستخدام الحجارة المنحوتة والمصقولة بشكل حديث فحسب ، بل وتصنع من المعادن أدوات أكثر نفعاً ويسراً في المرحلة المسماة بالحقبة الكالكوليتية (عصر المعادن) هذا وقد عثر في مراكز حفريات منطقة برادوست (تقع في مركز كردستان) الواقعة على حواف جبال زاغروس ، وفي الحفريات الجارية في جايونو (تقع بالقرب من ناحية أرغاني بمدينة آمد الكردستانية) ، وفي مدنية غوباكلي تبه (موقع أثري يقع في أعلى قمة جنوب شرق أورفا بشمال كردستان)، على أمثلة معمارية دينية ، ومنازل مصنوعة من الحجارة الضخمة المنحوتة بنحو مذهل ، وعلى العديد من الأدوات المصنوعة من الحجارة المعدنية ، والتي ثبت رجوعها إلى ما قبل أربعة عشر الف عام .

فهذه الأدوات الثقافية، ومجموعة المفردات المعبرة عنها، تبرهن على أن منبع المجموعة اللغوية والثقافية الآرية، ليس في أوروبا والهند، بل على العكس، حيث كانت أوروبا تمر بالعصر الحجري القديم (وهو العصر الذي استخدم فيه الإنسان أدوات حجرية لاصطياد الحيوانات، حيث كان يعيش في العراء)، في حين كانت بلاد الهند تشهد عصراً مشابهاً له.

2-لا يمكن التغاضي عن منزلة اللغة والثقافة السامية كفرع جانبي مهم ، فما من شك في غنى هذه البنية اللغوية –الثقافية التي كونت فروقاتها المميزة في نفس المرحلة من وجهة النظر التاريخية ، وربما كانت أغنى وأرقى من المجموعات اللغوية –الثقافية الآرية من جهة كونها ثقافة رعوية و قبلية ، حيث تلتمس آثار ذلك في المخطوطات السومرية التي تتحدث بلغة ملحمية عن الصراعات والمنافسات الجارية بين أصول الرعي والزراعة على نحو فرعين أساسيين ، فالبنية الملحمية في لغتها وثقافتها راقية ، وانطلاقاً من مزايا الصحراء الرتيبة ، فقد يتزامن نشوء (أل،الله) مع هذه المراحل ، ومن المحتمل أنه جرى تبجيل الهوية الأولى المتمايزة والخارقة للمجتمع القبلي ،ورفع شأنها عالياً ، والوصول بذلك إلى اصطلاح مقدس متجسد في (أل، الله)، ومن المعتقد أن اصطلاحات ومؤسسات (الشيخ ، السيد) قد

تكونت مبكراً في الثقافة السامية ، لتتحول في عصر المدنية إلى مؤسسات (النبي ، الأمير).

والجدير بالذكر أن الثقافة السامية ليست لها أية مساهمة في الحضارة المصرية الفرعونية، فالوثائق التاريخية تشير إلى أن مصر اعتبرت هذه الثقافة دخيلة عليها، كما أنه ما من شبه بينهما في البنية اللغوية أيضاً، في حين تحتل الثقافة السامية مكانها ضمن المستويات الأولى عبر الهويات الأكادية، البابلية، الآشورية، الكنعانية، الإسرائيلية، ومن المرجح انصهار المجموعات القاطنة في فينيقيا (وهي ما تعرف اليوم بلبنان وسوريا وإسرائيل)، وفلسطين بل وحتى في إسرائيل داخل بوتقة اللغة والثقافة السامية فيما بعد.

كما تشير المصادر السومرية ، والسجلات الأركولوجية (علم الآثار) إلى هجوم الساميين على ساحة اللغة والثقافة الآرية ، أو هجرتهم إليها على شكل موجات متوالية ، حيث تركت المستوطنات الأكادية ، والبابلية ، والآشورية ، والآرامية ، والعربية بصماتها في ميزوبوتاميا العليا على شكل طبقات واضحة ، وإن العرب شرعوا بإطلاق حملة صهر مركّزة ، تزامناً مع ظهور الدين الإسلامي ، بحيث تشابكت ظاهرتا الأسلمة والتعريب ، وقد أبدت الثقافة ، واللغة الآرية مقاومات باسلة ، بالإضافة إلى أنها سجلت نجاحاً مظفّراً بين الحين والآخر ، إزاء حملات الغزو والاستيطان والصهر ، ويمكن الاستدلال على ذلك بمؤسسي الحضارة السومرية ، ورواد الحضارة المصرية ، والهكسوس (الملوك الرعاة) ، والعبريين فالرواد السومريون الأوائل هاجروا إلى ميزوبوتاميا السفلى في عهد تل حلف (فترة زمنية في تاريخ بلاد الرافدين شهدت بروز الحضارة الحلفية)، والذي يعد العصري الذهبي للثقافة الآرية النواة في ميزوبوتاميا العليا ، لينقلوا معهم هذه الثقافة إلى هناك ، وهكذا ، فمثلما تنتشر الثقافة الأوروبية الراهنة اليوم في كافة أرجاء العالم ، فقد انتشرت اللغة والثقافة الآرية الانتشار ذاته ، ولاسيما بعد مرورها بالمرحلة المؤسساتية ، والانفجار السكاني .

3- إن التطورات الحاصلة في وادي النيل كساحة ثقافية مهمة ، والرقي بالثقافة الزراعية في هذا الوادي ، ونقلها إلى الحضارة المصرية الفرعونية ، أمر لا ينسجم مع البنية اللغوية ، والبنيوية للثقافة السامية ، نظراً لافتقارها لهذه المهارة من حيث المضمون والمحتوى ، إن البنية اللغوية المصرية تقدم اختلافها بعدم احتوائها لأية عناصر سامية بتاتا ، أما الثقافات المتواجدة في السودان وإثيوبيا وغيرهما من الأصقاع الأفريقية الجنوبية ، فلا تزال بعيدة آنذاك عن تخطي العصر الحجري القديم ، وبالتالي فمن غير الوارد نظرياً أن تمهد الطريق للثقافة المصرية.

ولهذا فالفرضيات النظرية تدعو إلى التفكير بأن أحد فروع الثقافة الآرية المنتشرة في عموم العالم، قد وصل هذه المنطقة في نفس المرحلة، فالأخدود الكبير بأفريقيا

الشرقية قريب إلى النيل، وتدفق البشر من الشمال صوب الجنوب أمر ممكن ووارد، بقدر التدفق من الجنوب نحو الشمال، والثقافات المتفوقة قد حملت تأثيراتها المتبادلة على الدوام عبر هذه الطرق.

4- بعد إثبات الثقافة الآرية لجدارتها ، وإنجاز تمأسسها الوطيد في الهلال الخصيب ، غدا انتشارها صوب الشرق أكثر تأثيراً ، وبالأخص نحو ما يسمى اليوم ببلاد إيران ، أفغانستان ، باكستان ، الهند ، والانتقال هنا كان انتقالاً ثقافياً ، أكثر من أن يكون انتقال مجموعات بشرية ، فانتقال التأثيرات الثقافية ، لا الجسدية ، والانتقال الثقافي الذي ظهرت أولى معالمه في الهضاب الإيرانية خلال أعوام 7000 ق.م ، شرع بالانتعاش في بلاد الهند حوالي أعوام 4000 ق.م، في حين أن هذه التأثيرات تعود إلى أعوام 5000 ق.م ضمن الهضاب التركمانية ، حيث يعتقد أن التراكمات الثقافية السابقة ليست سوى عناصر منحدرة من الأصول الأفريقية القديمة ، والتي لا تزال متسمّرة في العصر الحجري القديم .

5- قد تكون المقارنة بين الثقافة الآرية ، والثقافة الصينية الأم موضوعاً غريباً ومثيراً ، إذ يُعتقد على أن الصين بلغت بثقافتها الطور الأعلى من العصر النيوليتي (العصر الحجري الحديث) في أعوام 4000ق.م ، وإذا وُضع انتقال الثقافة الآرية من أوروبا إلى الهند في نفس التواريخ نصب العين ؛ فيمكن القول أنها انتقلت بيسر إلى الصين ، ولهذا فيرجح احتمال كون الثقافة الصينية اقتاتت على الثقافة الآرية ، إلى أن جغرافيتها على وجه الخصوص (سواحل النهر الأصفر) وشروطها التاريخية المنطوية على ذاتها إلى أبعد حد ، وبنيتها الخاصة بها ، قد منحت التطور المحلي مكانة أساسية، فالتأثير موجود حتماً ، إلا أن المزايا الثقافية المحلية مهدت لثورة نيوليتية (ويقصد بها تأهيل الحيوانات ، الانتقال إلى الزراعة المروية ، شق قنوات الري لجر المياه في العصر الحجري الحديث) تحاكيها وتجاريها .

فالثقافة النيوليتية، والمرحلة الحضارية اللاحقة، انتقلت إلى عناصر المجموعات الأخرى عبر الصين، وقد يكون تشبيه الصينيين ضمن مجموعاتهم، بالعرب الساميين أمراً منيراً، فالمجموعة الثقافية الصينية أيضاً –مثلما هي حال الثقافة السامية تماماً – عجزت عن إبداء قدرتها في أن تتميز بالكونية التي شهدتها الثقافة الآرية، ففي هذه الحال، فسيكون من الناجح ترتيب الأمر، ليكون الآريون في المرتبة الأولى، يليهم الساميون، ومن ثم الصينيون.

6-يتميز تسليط الضوء على العلاقات بين المجموعة اللغوية والثقافية الآرية ، والمجموعات اللغوية والثقافية الهند وأوروبية بأهمية قصوى ، بل وربما كان من أهم القضايا الأولية لعلم التاريخ ، نظراً للكثير من المغالطات الزائفة بحقها ، ولكونها الحلقة المبهمة التي عجزوا عن تفسير مشترك لها ، فعندما أُدركت شراكة مجموعة اللغة الآرية مع المجموعة اللغوية الهند وأوروبية في القرن التاسع عشر ،

حيث بدأ الشروع ببحوث عظمى بصددها ، وبودر إلى طرح شروح متضاربة حول المنبع الأصل لهذه المجموعات، أي حول (اللغة والثقافة الأصل) لتبرز مداولات ترجع جذورها إلى الثقافة اليونانية ، وأخرى إلى الهند ، بل وإلى ثقافة أوروبا الشمالية ، وبعضها ترجعها إلى الألمان ، إلا أن كل الفرضيات ذهبت أدراج الرياح عندما ثبت بالحجج القاطعة موضوع الانقطاع عن الثدييات البدائية في (الأخدود الكبير) بأفريقيا الشرقية ، وموضوع الثورة الزراعية النيوليتية في الهلال الخصيب ، لتكتسب هاتان البؤرتان الأساسيتان أهمية عظمى في التاريخ البشري .

وقد اكتسبت النقاشات بشأن تحديد المجموعة اللغوية ، والثقافية الأصيلة في الهلال الخصيب أهمية كبرى ، وقد برزت أولوية المجموعات الكردية البدائية المسماة بالمجموعات الآرية ، وكذلك الفارسية والأفغانية والبلوجية بما يتوافق مع التفسيرات السابقة ، ويخص بالذكر في هذا المضمار موضوع الجزم بانتماء الثقافة واللغة الآريتين المرتكزتين على الشعوب الأصيلة ، وعندما برهن فك رموز البنوية اللغوية للهوريين الذين هم أكراد أوائل ، على أن المنطقة النواة للثورة النيوليتية ، هي القادرة دوناً عن غيرها على إبداع مثل هذه اللغة والثقافة ، وقد تمّ الجزم بأن هذه المنطقة النواة ، هي –فعلاً- القوس الذي ترسمه سلسلة جبال طوروس – زاغروس ، أي المنطقة المسماة بالهلال الخصيب ، والتي شكلت مركز ولادة اللغة والثقافة الآرية ، وجميع الحفريات الأثرية والفعاليات الأتيمولوجية (علم دراسة أصل الكلمات وتاريخها عبر بسط أو تعليل جذورها) ، والمقارنات الأثنولوجية (علم الأعراق) الحاصلة مؤخراً ، تعزز صواب هذه الأطروحة تدريجياً وهكذا تم حل القسم الأعظم من قضية المنبع الأم الذي كان الدليل الرائد للمجموعات اللغوية والثقافية الهندوأوروبية .

التفسير السليم للحياة والتطور الاجتماعي النابعين من الهلال الخصيب:

يتعلق هذا الموضوع بمدى تأثير بعد زماني ، ومكاني اجتماعي معين على نمط حياة معينة ، فالوقائع الاجتماعية (حقائق منشاة) بيد الإنسان ،وفي حال عدم تشخيص معاني الأسلوب السليمة بشكل صحيح ، فقد يؤدي الشروع بأي نشاط تَعبِئَوي إلى تحويل التعلم ، والمعاني إلى أرضية خصبة لانتعاش الجهل ، وعدمية المعنى ، فالجهل السائد في الحداثة الرأسمالية أفدح من جهالة (أبي جهل)الذي لعنته ونبذته الأديان الكبرى أثناء انطلاقاتها ، وربما كانت المدرسة الوضعية العلة الأساسية في ذلك ،كونها ديناً منطلقاً من المادية الأكثر اضمحلالاً ، فهذا الدين الذي يمكن وصمه بالظواهرية ، وهو بطبيعة الحال ميتافيزيقي (ما وراء الطبيعة) نظراً لمزاياه التي هي ثمرة من نتاج ذهنية الإنسان .

فالظواهرية (وهي نظرية تنكر معنى الوجود، وتقول إن الوجود الحقيقي مؤلف من الظواهر)، ليست شكلاً لتفسير حقيقة ما، وهي ليست فلسفة العلوم المعتمدة على

الظواهر، حيث من المحال وجود فلسفة كهذه، فكل ما تقع عليه العين، أوما تسمعه الأذن، هو ظاهرة بحد ذاتها، وكل حس هو ظاهرة، وبالتالي فأي متهور أو جاهل يمكنه الزعم بأن هذه فقط هي حقيقة الكون؟ فحسب رأي أفلاطون (فيلسوف يوناني)،لا يمكن اعتبار الظاهرة مظهراً ، أو انعكاساً ، وقد تكون وفق وجهة نظر نيتشه (فيلسوف ألماني ،كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية ، وتاريخ الفكر الحديث) إدراكاً بسيطاً ليس إلا ، فالحداثة مجرد صورة حياة مُنشأَة على أساس الظواهرية ، وهي متعلقة بأكثر الحياة سطحيةً ،لا بجوهرها ، أما مقولة أدورنو (فيلسوف وعالم اجتماع وعالم نفسي وموسيقي ألماني ،اشتهر بنظرياته النقدية الاجتماعية) ، "الحياة الخاطئة لا تعاش بصواب " ، والتي ذكرها وعجز عن تحليلها ، فليست إلا محصلة لخيبة الأمل والقنوط اللذين ألمّا به تجاه الإبادة العرقية لليهود ، ففي هذه العبارة يكمن مربط الفرس ، إلاّ أنها تفتقر للإيضاح ، أين هو الخطأ الأولي في الحياة ؟ من هم المسؤولون عن الحياة الخاطئة؟ كيف أُنشئت؟ وما صلاتها بنظام المجتمع السائد؟ ما من ردود على هذه التساؤلات، وما شابهها من تساؤلات أخرى، بل تم الاكتفاء بإرجاع جذورها إلى مرحلة التنوير والعقلانية، في حين أُبقي على الموضوع يكتنفه الغموض.

هناك جهود مماثلة لدى ميشيل فوكو (فيلسوف فرنسي، درس وحلل تاريخ الجنون، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون)، الذي اكتفى بالقول (الحداثة موت الإنسان) ويتركها وشأنها، فكيف لفيلسوف شهير لهذه الدرجة أن يحشر موضوعاً حيوياً لموت الإنسان في جملة قصيرة

، ويلتفت عنه؟ فلا معنى للقول: إنه كان سيسلط الضوء عليها، لكن الموت المبكر لم يدعه، ذلك أن الحقيقة المهمة والتفسير الجدي يستلزمان التنوير والإيضاح، حتى ولو أثناء التقاط الأنفاس الأخيرة، فمثلاً لم يهمل كوبرنيكوس (عالم وراهب وفيلسوف بولندي، أول من صاغ نظرية مركزية الشمس) حتى وهو على فراش الموت، التوصية بنشر مؤلّفه الأخير الذي يقول فيه (إن الأرض تدور حول الشمس).

وبناءً على ما سبق، فيستحيل تفسير المجتمع كلياً من خلال الثقافة وحدها، بل يتطلب الأمر إضافة العديد من العوامل الأخرى، إلا أنه نادراً ما يتم رفض كون الثقافة هو الأساس، ويُقصد بالثقافة المكان، أو البقعة الجغرافية التي تتسم بمزايا لابد منها لأجل حياة مجتمع ضمن التاريخ المؤطّر بالفترة الطويلة المترعة بالمعاني.

فعلى سبيل المثال ، فاختلاف أنماط حياة المجتمعات السامية و المجتمع الصيني و التي تستند الى ركائز ما قبل عشرة آلاف سنة ، يضفي المعاني على حياتها بدرجة معينة ، بالإمكان قول الأمر عينه بشأن ثقافة الحياة الآرية أيضاً ، من جانب آخر ، ومن خلال (علم المعاني) يمكن استنباط كيفية إضفاء الشرعية على مقومات ثقافة

الحياة تلك في ظل الهرمية و الدولة ، وتحت حكم الملوك المقنّعين ، أو غير المقنّعين ، و المتسترين منهم أو العراة ، ليحرّفوا معانيها و يشوهوها بدرجة مروّعة ، و يجعلوها منفتحة لشتّى أنواع القبح و الحروب و الإبادات العرقية ، وبقدر ما تتواجد أنماط الحياة الرسميّة ، وغير الرسمية شاقولياً ، تكون ثمّة أنماط حياة على نحو حلقات متباينة أفقياً ، علاوة على أنّ جوهر الحياة الاجتماعية في المنبع الأم هو الذي يحدد أشكالها في جميع هذه الحلقات .

وبناءً على ما سبق ، فالوقائع الاجتماعية المشيّدة في الهلال الخصيب تستمر بوجودها ، ولو بالخطوط العريضة ، متجسدة في ديمومة الحياة الرّاهنة ، فالعوامل الذهنية و العناصر الثقافية الماديّة على حدّ سواء ، متشابهة في المضمون ، رغم بعض التغيرات الكميّة و الكيفية التي طرأت عليها ، واللغة المشتركة في بنيتها الأساسية ، وأشكال الفكر تستمر بوجودها على نحو منفصل في الميادين العلمية و الدينية و الفنية ، وحروب الدفاع والهجوم مستمرة اليوم ، مثلما كانت في الأمس ، كما لاتزال العائلة تحافظ على حقيقتها كمؤسسة أوليّة ، أما الفوارق الموجودة فيما بينها ، فتُعزى إلى استنادها على تضخّم مؤسسة الدولة ، فالدولة التي تتسع دوماً على حساب المجتمع ، قد اتخذت من حاجاتها ومنافعها أساساً في إطراء تغيرات كمية ، و نوعية مستمرة على الذهنية الاجتماعية ، و الزخم الثقافي المادي اللذين أدرجتهما ضمن ملكيّتها ، أما التطورات الاجتماعية ، وبعكس ما يُعتقد ، فقد استمرت بوجودها على أرض الواقع رغم أنف الدولة التي نشرت التمايز الطبقي على نحو فروع معقودة ومتشعبة .

شرح مضمون بعض المصطلحات:

1- مصطلح الثقافة : عند التوسع في شرح مضمون الثقافة ، نجد أنه لا جدال في أنّه لمجتمع الكلان أيضاً ثقافته ، و بالتالي نمط حياته ، فالحياة ضمن مجموعات الكلان المتسمة بخاصية الكونية خلال المجتمع البشري متشابهة على صعيد المعنى ، حيث تكون البنية الفكرية واللغوية دارجة عبر الإشارات ، نظراً لكونها لم تقطع مسافات شاسعة بعد على طريق الانقطاع عن الثدييات البدائية ، وبالتالي عن الحيوانات ، وتحويل حياة كلان ما إلى قصة ، هو أشبه بقصة حياة جميع الكلانات ، فتأمين الحاجات الضرورية ، والأمن ، والتكاثر ، هو ثالوث يسري على جميع الكائنات الحية على وجه التقريب .

وبهذا ، يكون التطور الثقافي تعبيراً عن مجموع المواضيع المادية المتزايدة مع المرونة الذهنية ، وتطور اللغة الرمزية ، فبينما تعبر الثقافة بإطارها الضيق عن ذهنية مجتمع ما ، وعن قوالبه الفكرية ، ولغته ، فإنها بإطارها العام تعبر عن إضافة التراكمات المادية للمجتمع أيضاً إلى ذلك (مجموع الأدوات والوسائل التي تلبي الحاجات ، إنتاج الغذاء وأنماط ادّخاره وتحويله ، المواصلات ، الحماية ،

العبادة ، أدوات التجميل والزينة)، أي أن مستوى الاختلاف والشبه في الذهنية الثقافية للمجتمعات ، وفي وسائلها وأدواتها من جهة ، ومستوى التمييز واللامساواة بين فقرائها وأثريائها من جهة أخرى، يحددان مسار مستويات الحياة المتباينة والمتقاربة فيها.

فالتراكمات الذهنية والمادية ، أنشِئَت بمهارة الإنسان نفسه ، وباتت تعبر عن ذاتها بتحولها إلى واقع اجتماعي ، ففي هذه الحالة ، فإن الإشارة إلى تشابه حياة مجتمع الكلان المعمّرة ملايين السنين على مر العصر الحجري القديم ، وافتقار الكلانات إلى أوجه الاختلاف الخاصة بها لن يؤدي إلى فقدان جدي للمعاني ، فكل حزام ثقافي عظيم ، يعني تطور حياة عظيمة ومختلفة ، ومن هذا المنطلق ، فيمكن المطابقة بين التطور الاجتماعي والتطور الثقافي ، فبقدر ما تتحقق المرونة والحرية الذهنية ، تكون اللغة الرمزية مشحونة بالمعاني والغنى الفكري ، وانطلاقاً من ذلك ، فبقدر امتلاك وسائل ثقافية مادية أكثر ، تكون الحياة الاجتماعية أرقى .

2-الفترة الأطول : يقصد بمجتمع (الفترة الأطول) ، مجتمع الهلال الخصيب الذي يشكل النهر الأم في الثورة النيوليتية (الثورة الزراعية) المتنامية بعد تراجع الحقبة الجليدية الرابعة ، إذ وجب عليه أن يستمر بوجوده ، إلى أن يأتي عليه عصر جليدي جديد مشابه ، أو أن تُحلَّ عليه كارثة نووية ، أو يستشري في جسده وباءً لا يمكن صده أو درؤه ، أو لأسباب أخرى يبلغ فيها حالة لا يمكنه الاستمرار فيها فيزيائياً ، إذ تحتل الثقافتان ذات المنشأين الصيني والسامي مكانهما في هذا المجتمع ذي (الفترة الأطول) على شكل فرعين، أما الفروع الثقافية الصغيرة الأخرى ، فهي كالسواقي بالنسبة إلى النهر الأم ، ومن الضروري إدراك البنية الداخلية لهذه الأطروحة بشكل حسن ، فالمجتمع المشيّد بكافة عناصره الذهنية والثقافية المادية ، منيع ووطيد لدرجة لا يمكن لأي سبب اجتماعي داخلي أن يهدمه خلال هذه الفترة ، ويمكن استخدام مصطلح (المجتمع الثقافي الأساسي) مقابل هذه الفترة ، حيث يعادل مصطلح (الفترة الأطول) ، وذلك لأن مصطلحي الفترة والمجتمع مخوّلان لتقديم إسهامات ملحوظة لعلم الاجتماع بمعانيهما الجديدة هذه ، فعلماء الاجتماع الليبراليون (حيث تقوم فلسفتهم على أفكار الحرية والمساواة) يسعون منذ الآن إلى الاعتقاد باستمرار، إدراكاتهم الاجتماعية إلى الأبد من خلال ميتافيزيقية مزيفة اعتماداً على مصطلح (نهاية التاريخ)، فقد كان الماركسيون وأصحاب المقاربات الأخرى ، الذين يؤمنون ب(يوم القيامة) يعدون ب(عصر سعادة أبدية)مبتورة من الأبعاد الزمانية والمكانية ، في حين أن المتشائمين السوداويين يرجّحون استذكار مفهوم (العصر الذهبي) الغابر .

وبناءً عليه، يعتبر مصطلح (الفترة الأطول) أكثر علمية وفق هذه النظريات الاجتماعية كافة، حيث يمدون ببراهين وحجج واضحة بشأن الظروف الملموسة،

وبداية النظام الاجتماعي ونهايته، ولا يخنق التاريخَ في إطار أكوام من الأحداث المتكدسة، ولا يسقطه إلى مستوى أشكال المجتمع الضيقة والمرحلية البسيطة، فلا الأحداث الآنية، ولا أشكال المجتمع تتميز بالقدرة على تفسير معاني الحياة بشكل شامل.

فهناك مكان للمؤسسات الأولية كافة ، كالدين والدولة والفن والقانون والاقتصاد والسياسة ، داخل المجتمع الثقافي الأساسي ضمن إطار الفترة الأطول ، هذا ويطرأ التغيير المستمر على المؤسسات كماً ونوعاً ،فبينما يتقوض بعضها ، فإن المضادة لها تتضخم بالمقابل ، وبينما تزول القلة منها ، فإن فاعلياتها تستمر بمعانيها في مؤسسات مغايرة ، أو في مؤسسات جديدة ، ولكي تبقى علاقات جدلية بنّاءة بين جميع المؤسسات والمصطلحات ، كما أن أحادية المجتمع الثقافي الأساسي لا تجرّده من شركائه الأقوياء ، أوفي بناء تكوينات جديدة داخلية .

ففي هذه النقطة، يمكن استيعاب دوافع النزاع بين التطوريين (الذين يؤمنون بالنظرية التطورية القائلة بقانون الصراع لأجل البقاء) ، و الخلقيين (الذين يؤمنون بنظرية الخلق القائلة بنشوء الإنسان والحياة و الأرض والكون ، نتيجة تدخل وإبداع رباني من قبل الخالق) ، فالخلقيون مدركون لمصطلح (الفترة الأطول) ، ويستمدون منهم قوتهم الأساسية ، وبالمقدور سرد الآيات التي تنص على فترة خلق الكون ونهايته بمفهوم ثقافي ، ولدى التفسير لهم من زاوية سوسيولوجية (علم الاجتماع) ، فالرأي الخلقي يكون واعياً للخصائص المقدسة والنبيلة والعظيمة للمجتمع المشيّد ، وما الكتب المقدسة الثلاثة (التوراة ، الإنجيل ، القرآن) سوى تفاسير تعمل على سرد الحياة المقدسة و الساحرة في الهلال الخصيب ، وما اعتناق الغالبية الساحقة من البشرية لهذه الأديان الثلاثة الكبرى ، سوى بسبب ماهية تفاسيرها تلك ، فالزعم بأن هذه الحياة الثقافية الجديدة المتحققة كمعجزة خارقة ، ستستمر إلى أبد الآبدين ، وجعل ذلك عقيدة أولية ، إنما يشير إلى مدى قوة تأثير هذه الثقافة .

فالسوسيولوجيون ، والعلمويون الآخرون، لم يذهبوا أبعد من النظر إلى المجتمع على أنه، مجموعات بشرية مؤلّفة من مجموع الأحداث والمؤسسات ، لذا ، فتفاسيرهم المتعددة على صعيد التمايز الطبقي ، والدولة ، والاقتصاد ، والقانون ، والسياسة ، والفلسفة ، والدين لا تتجاوز منطق الأحداث والمؤسسات، ومع ذلك ، فهي لا تود إدراك أسباب عدم تثمين هذه المقاربات بما يعادل حتى قيمة كتاب مقدس واحد ، فنقطة الضعف الأهم في سرودهم وتفاسيرهم تلك، تكمن في عدم استيعابهم أهمية مجتمع الفترة الأطول ، فالمجتمعات ليست متشبثة بالكتب الدينية المقدسة بسبب الرب المجرد ، وبعض الرموز والطقوس التي تؤلفها ، بل إنها تجلّها وتبجّلها لإحساسها بعثورها على معان ، وآثار قصص حياتها ضمنها ، ولأنها تؤدي دوراً مماثلاً لذاكرة المجتمع الذي يحيا بشكل ما ، فهي مندرجة بين الضرورات التي لا غنى عنها ، أما مدى صحة ، أو خطأ الأحداث والمصطلحات التي تنص

عليها ، فهي تفاصيل من المرتبة الثانية ، فبدون تبيان علاقات الفترة – المجتمع ضمن مسار التاريخ بمعانيها القيمة ، فلن تنجو الشروح التاريخية والسوسيولوجية المنفصلة من إحداث جروح عميقة في جسد الواقع الاجتماعي ، وإفقاده كل معانيه.

وأما التطوريون ،ورغم قيامهم بتشخيص الأحداث والظواهر بنحو أفضل ، إلا أنهم لن يتخلصوا من الانتقادات ، لافتقارهم إلى معاني مصطلح (الفترة المجتمعية)، وذلك لأن الذاكرة المجتمعية أهم من التطور الطبيعي للوقائع والظواهر ، وكما يتميز علم المعنى بالأسبقية على توثيق الظواهر بالنسبة إلى الإنسان ، وأما عدم تخليهم عن الرب ، فيعزى ذلك إلى قوة الذاكرة المجتمعية ، فالمجتمع يساوي بين ذاكرته ومصطلح الرب ، ومن هنا ، فلن تنجو الظواهرية من سهام النقد ، ما دامت معارضة في أساسها لذاكرة المجتمع ، وبالتالي لميتافيزيقيته ،حيث أن المجتمعات المفتقِدة لذاكرتها ، ستتعرض بكل سهولة للاستغلال والاحتلال والانصهار.

في حين أن الوضعيين، ورغم تعريفهم العلمي للمجتمع، إلا أن (الوضعية) هي المدرسة الفكرية الأقل معرفة بالمجرى الحقيقي للمجتمع، فبانطلاق الوضعيين من التفسير المادي البحت للمجتمع على أنه أكوام مبتورة عن التاريخ، وبتعريفهم إياه بمنوال هو الأكثر انحرافاً، وتشوهاً، ونقصاناً، إنما يفتحون الطريق أمام أكثر الممارسات الاجتماعية خطورةً، من هنا كان اصطلاح (الهندسة المجتمعي) على علاقة وثيقة ب (الوضعية)التي تعتقد بإمكانية رسم الملامح المرغوبة للمجتمع من خلال التدخل الخارجي.

3-مصطلح الفترة البنيوية : يمكن تكييف مصطلح (الفترة البنيوية) مع التحولات المؤسساتية الأساسية في التطور الاجتماعي ، فقد يساهم تعريف فترات بناء البنى الأساسية وانهيارها في إضفاء المعاني على الواقع الاجتماعي ، وباتخاذ وضع القمع والاستغلال لدى الإنسان مقياساً ، فسيكون بالإمكان جعل التقسيم السائد للمجتمعات إلى مجتمعات عبودية ، فإقطاعية ، فرأسمالية ، فاشتراكية، موضوعا لشروح ثمينة ، فقد تمّ ربط الفترات البنيوية بأشكال المجتمعات تلك عن بروز أدبيات مهمة ، لكن ، وبسبب عدم قدرتها على عقد صلات قيّمة مع مصطلحي (الفترة الأطول) ،(الفترة القصيرة) ، فهي تبقى عقيمة ومتخبطة في تكرار كليشيهات (كلمة فرنسية تعني شيئاً كثير الاستعمال لدرجة التكرار) المعاني المألوفة .

وبالمقدور تفسير المجتمع النيوليتي عبر فترات المجتمعين البنيوي والثقافي الأساسي بشكل متداخل ، فمثلما يمكن إيضاح البنى المؤسساتية ، وتراكمات الذهنية والحياة المادية الخاصة به عبر (الفترة البنيوية)، كذلك يمكن إيضاحه عبر مصطلح (الفترة الأطول) ،نظراً لصيرورة تأثيراته الثقافية –التي لا تزال قائمة- إلى حين تعرضه لانهيار ، أو لإبادة جسدية محتملة ، فموضوع فترات المجتمع الثقافي الأساسي يتألف بصورة رئيسية من المجموعات البشرية الواسعة النطاق ، ومن

شتى أنواع الذهنية ، كالعلم والفن والدين واللغة والعائلة والأثنية والقوم وما شابهها ، والتي غالباً ما تبقى تحافظ على وجودها إلى حين انقضاء كل فترة ، حتى ولو طرأت عليها تغيرات مختلفة ، وارتباطاً بنتائج الفروع العلمية كافة ، فإن الأيكولوجيا (علم البيئة) في هذه المرحلة تُعدّ من المواضيع التي تشكل حجر الزاوية كعلم معني بالتمأسس الاقتصادي ، وتُعدّ السياسة الديمقراطية أيضاً من المواضيع التي ينبغي العمل بها دائماً ، سواء كعلم أو مؤسسة .

فبالإضافة إلى أن تأسيس الدولة وأنماط حياتها ، يشكل المؤسسة الأولى والأهم في الفترات البنيوية ، فمن مواضيعها المهمة الأخرى –إلى جانب الدولة – يأتي كل من الهرمية ، الطبقات ، المُلكْ ، الأرض ، الوطن ، التي تُعيّن حدود الدولة ، وأشكال الدولة المتمثلة في دولة الكهنة السومريين ، ودولة السلالات والدولة الجمهورية والدولة القومية ، كما تُعدّ أشكال الدين موضوعاً مهماً في الفترة البنيوية ، كذلك ، فالمواضيع التي تقسّم المجتمعات وفقاً لأنماط الإنتاج (نيوليتية ،عبودية ، إقطاعية ، رأسمالية ، اشتراكية) تندرج ضمن مواضيع الفترة البنيوية التي تتضمن موضوع انهيار المؤسسات أيضاً ، وقد يكون من المناسب تسمية الفروع التحتية لعلم الاجتماع الذي يبحث في المواضيع البنيوية ب(السوسيولوجيا البنيوية) ، كما أن تسمية مواضيع البحث في الفترة الأطول ب (سوسيولوجيا الثقافة الأساسية)ستكون في محلها من جهة تكامل الإطار .

4-مصطلح الفترات الوسطى والقصيرة :إن مواضيع الفترات الوسطى والقصيرة ،هي وقائع وظواهر تعددية كماً وكيفاً ، أي أن كل أحداث التغير والتحول الثقافيين والبنيويين ، هي مواضيع تتناولها الفترات القصيرة الوسطى ، فمواضيع الفترة المتوسطة تهتم بالتغيرات الأطول عمراً نوعاً ما ، والتي تبرز ضمن المؤسسات البنيوية عينها ، وعلى سبيل المثال ، يمكن إدراج الأزمات الاقتصادية ، وتقلبات النظم السياسية ، وشتى أنواع الكيانات التنظيمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعملية ضمن هذا الإطار، كما تُعتبر كل النشاطات الاجتماعية والمجتمعية للفرد من المواضيع الرئيسية للفترة القصيرة ، إضافة إلى أن الوسائل الإعلامية أيضاً تتخذ من الأحداث والظواهر القصيرة الأمد أساساً لها على الأرجح ، هذا وتحتل الأحداث اليومية في كل مؤسسة بنيوية مكانة الصدارة في الفترة القصيرة أيضاً .

وباعتبار أن علم الاجتماع هذا معنيّ أساساً بالوقائع المندرجة ضمن الفترة القصيرة، فقد يكون نعته بالسوسيولوجيا الوضعية نعتاً صائباً وذلك لأنه يجب أن يكون للسوسيوجيا فرع معنيّ بدراسة الوقائع والأحداث، ولاسيما الوقائع التي تكون معينة وذات وزن في مراحل الفوضى، وسيتحقق التكامل في حال دمج علم الاجتماع مع

السوسيولوجيا الثقافية الأساسية، والسوسيولوجيا البنيوية، ومع السوسيولوجيا الوضعية التي هي عبارة عن سرد وقائعي.

5- الوسط الكوانتي والفوضوي :إن أوساط الكوانتوم (مصطلح فيزيائي ، يستخدم لوصف أصغر كمية يمكن تقسيم بعض الصفات الطبيعة إليها، وتستخدم بمعنى الاحتمال)،والفوضى هي أوساط خلق وتكوين ، ووجودها مؤكد ، رغم عدم الغوص والتدقيق في أغوارها بعد ، لذا فمن بين المواضيع الأساسية التي بدأت تجذب اهتمام العلوم ، هي كل الكيانات والتكوينات ذات الفترات الطويلة والمتوسطة والقصيرة ، والتي تبقى محافظة على وجودها بفضل الوقائع الجارية في كل لحظة ، وفي الفواصل الزمنية القصيرة على حد سواء، فهذا النوع من لحظة الخلق، والذي يمكن تسميته ب(لحظة الكوانتوم) و (فاصل الفوضى) لا يحتمل الإهمال بتاتاً ، واحتمال الحرية في الكون ، إنما يتحقق في هذه اللحظة ، والحرية ذاتها متعلقة ب(لحظة الخلق) تلك ، ذلك أن كل البنى الموجودة في الطبيعة والمجتمع ورغم اختلاف ماهياتها ، هي بحاجة إلى(لحظات الخلق) سواء على صعيد التكوين ،أو من حيث فترة حياتها وحفاظها على وجودها .

ولهذا، فسيكون من الأنسب التفكير في إطلاق اسم على علم الاجتماع المعني بمواضيع الخلق في أقصر فترة من بين الفترات القصيرة على الصعيد الاجتماعي ؛حيث يمكن إطلاق تسمية (سوسيولوجيا الحرية) على علم الاجتماع المعني ب(لحظة الخلق) في الوقائع الاجتماعية، وذلك لأن سوسيولوجيا الحرية تعتبر نوعاً من السوسيولوجيا الذهنية ،وذلك نظراً للمرونة المذهلة التي يتميز بها عقل الإنسان ، وما يتمخض عنها من إبداع خلّاق ، والتي تبلغ حداً منقطع النظير في كفاءاتها بفضل المجتمعية ، وربما كان البحث في فكر الحرية وإرادتها يحتل صدارة المواضيع المهمة ، وبطبيعة الحال ، تتصدر سوسيولوجيا الحرية المواضيع السوسيولوجية التي يتعين تطويرها ، باعتبار أنه للتطور الحاصل في لحظة الخلق ، جانب من الحرية ، نظراً لكون هذه الفترات الأقصر من الفترات القصيرة (أي لحظة الكوانتوم و فاصل الفوضى) ،والتي يمكن تسميتها أيضاً بسوسيولوجيا الخلق ، وتحتوي الميدان الاجتماعي بالأكثر .

6-الفترة الفلكية: لايزال الغموض يكتنف مواضيع هذه الفترة، لكن وبالخطوط العامة، فإن تكون وزوال الشمس، الجزر السماوية، ميزة الاتساع والتقلص المحتملين في الكون، وبالتالي قوى الجذب والدفع الأساسية، هي قضايا يمكن إدراجها في لائحة اصطلاحات ومواضيع (الفترة الفلكية).

التطورات الاجتماعية الحاصلة في الهلال الخصيب بحسب الرؤية السوسيولوجية:

لو أعيد البحث والتدقيق في التطورات الاجتماعية الحاصلة في الهلال الخصيب ، ولكن بحسب الرؤية السوسيولوجية ، فسُيلاحظ أن سوسيولوجيا الحرية قد شهدت خلال مرحلة الثورة النيوليتية القائمة في هذه المنطقة أغنى فواصل الفوضى ، وأكثرها عطاءً في تاريخ المجتمعات ، فمع ارتداد الجليد سريعاً إلى قمم الجبال الشاهقة ، شرعت المجموعات المتنقلة المقتاتة على القطف والقنص ، تتوجه نحو الحياة المستقرة ، وتميل إلى الاعتماد على الزراعة في معيشتها ، وذلك بعد حل تكويناتها المجتمعية النابعة من تجاربها التي خاضتها في المراحل السابقة ، و هنا أصبحنا وجهاً لوجه أمام تخلي مجموعات الكلان المعمرة مئات الآلاف من السنين عن مكانها لبنى أوسع ،ونحن الآن على عتبة عقبة تشهد انفجاراً وتحولاً ذهنياً بكل معنى الكلمة ، فعوضاً عن ذهنية الكلان القديمة والبنية اللغوية غير المنقطعة كلياً عن لغة الإشارات البدائية ، فثمة انعطاف نحو تشكل ذهنية الشعب والأثنية القاطنة في قرى أوسع ، ويتطور نظام اللغة الرمزية بسرعة ، ويُبتكر عدد لا حصر له من مواد الغذاء ، المواصلات ، النسيج ، الفخار ، الرحى ، العمران ، والمواضيع الدينية ، والفنية ، والتي تتطلب بدورها نظاماً من التسميات والقوالب الذهنية الجديدة.

وبينما يعتمد المجتمع الجديد غالباً على حياة القرية ، فإن أواصر الكلان تتحول إلى روابط أثنية ، إذ لا يمكن لهذه الأشكال الجديدة من البنى المادية أن تسير ، أو حتى تبدأ دون وجود إطار ذهني أغنى وأثمن معنىً ، ويتجسد هذا التحول الذهني ولغته في رسوم الإلهة –الأم كرمز للمجتمع النيوليتي ،إلى جانب بقاء الطوطم (ويقصد بالطوطم ديانة مركبة من الأفكار والرموز والطقوس ، وتعتمد على العلاقة بين جماعة إنسانية وموضوع طبيعي، وقد يكون الطوطم طائراً ، أو نباتاً ، أو حيواناً، أو ظاهرة طبيعية ، أو مظهراً طبيعياً ، مع اعتقاد الجماعة بالارتباط به روحياً) كهوية للمجتمع الكلاني القديم ، فبينما يضمحل عدد الأشكال الطوطمية ، فإن الأوساط تكتظ برموز الإلهة-الأم التي ترمز إلى اتساع نطاق دور المرأة الأم ، وهذا ما يشكل مرحلة أرقى دينياً ، حيث تستجلب معها عدداً كبيراً جداً من الاصطلاحات ، وتبرز اللواحق المؤنثة في اللغة لدرجة ستصون فيها منزلتها الأولية في اللغة الرمزية فترة طويلة من الزمن ؛ ولا نبرح اليوم نعثر على هذه الخاصية في العديد من اللغات ، ومع بروز الإلهة –الأم ، تشرع المجتمعية تلتحف بغطاء كثيف من القدسية ، فالمجتمع الجديد يعني تماماً مصطلحاً ، تسمية جديدة ،من هنا، فعلينا إدراج ما أسميناه ب(مرحلة الثورة الذهنية)ضمن حقل سوسيولوجيا الحرية ، نظراً لتطلبها الإبداع ، ومعايشة هذه المرحلة بشكل كثيف هي من المواضيع التي أجمع عليها المؤرخون الرواد ، فالآلاف من الظواهر تعني الآلاف من الثورات الذهنية والأسماء ، إنه انفجار أشمل من الثورة الذهنية الحاصلة في أوروبا ، واستلزم جهوداً حثيثة أكثر أصالة وإبداعاً ، وقد بُرِهن تاريخياً على أن القسم الأعظم من

المصطلحات والاكتشافات التي نستعملها اليوم قد أنجزت في تلك الحقبة ، فهي حقبة إبداع اجتماعي ، لأنها شهدت اكتشافات ، واختراعات علمية وتقنية ، تساوي ما هو قائم في يومنا بأقل تقدير ، فاللائحة المكونة من الدين، الفن ، العلم ، المواصلات، المعمار ، الغلال ، الحبوب ، الفواكه ، الحيوانات الداجنة ، الحياكة ، الفخار ، الطحن بالرحى ، المطبخ ، العيد ، الأسرة، الهرمية ، الإدارة ، الدفاع والهجوم ، الهدايا، العطايا ، الأدوات الزراعية ، والكثير مما يمكن إضافته ، ما تزال تعتبر اليوم لائحة أساسية في الحياة الاجتماعية ،بعد أن طرأ عليها التغيير كماً ونوعاً ، وإذا ما تم تدقيق البنى القروية والعائلية المتبقية من العهد النيوليتي ، فسيُرى أن القيم المتكونة فيها - وعلى رأسها الأخلاق المجتمعية الأكثر أصالة ونبلاً ، والتي تُفعم الحياة بالمعاني النفيسة ، وتزوّد المجتمع بالقوة والهيبة ، بدءاً من الاحترام والود ، وصولاً إلى علاقات الجوار ، والتعاون والتضامن- تضاهي في رُقيها مُثُل(أو لا أخلاقيات) الحداثة الرأسمالية بأضعاف مضاعفة ، وإن قوالب الذهنية الأساسية في المجتمع ، والتي لن يعفى عليها الزمن أبداً ، مشحونة ببصمات تلك الحقبة أساساً .

وبالإضافة إلى الحياة الوقائعية في المنطقة ، والتي تتميز بغناها الوفير نسبةً لعهدها، وذلك من زاوية السوسيولوجيا الوضعية ، فقياساً بالمجتمع الكلاني ، ونمط معيشته الرتيبة المعتمدة على الصيد ، الدفاع ، جمع الثمار ، فالوقائع والظواهر الجديدة في الهلال الخصيب ، تتبدى كانفجار مدوّ ، فالأحداث والظواهر اللامتناهية في تعدادها ، والمكتسبة تسميات جديدة ، تبسط لنا صوت الإنسان ، وأعماله بأغنى الأحوال ،هذا ويمكن الاستنباط من نصوص الكتب المقدسة ، بأن المعاني الأولية التي تركت بصماتها على ذهنية الإنسان في تلك الحقبة ، قد تمخضت لاحقاً عن مصطلح (الجنة)، وقد نكون بذلك أمام أفضل لحظات السوسيولوجيا حظاً ، فهو بالنسبة إلى البشرية تطور أقرب إلى أن يكون وابلاً غزيراً من النجوم المتلألئة حيث تنهمر الأحداث ، والظواهر اللامعة كالنجوم البراقة في الجهات الأربع من المعمورة ، لتحقق خيال الجنة ضمن التطور الاجتماعي ،بل، ولتزرع لحظات تحويل هذا الخيال إلى حقيقة وتحوله إلى ثقافة .

فيمكن ملاحظة آثار كل الإجراءات المؤسساتية في أراضي الهلال الخصيب ، حيث نقشت بصماتها على مسار التطور الاجتماعي من جهة السوسيولوجيا البنيوية، ولا سيما مرحلة ما بين أعوام 6000-4000 ق.م والتي هي مرحلة تأسيس وتمأسس بكل معنى الكلمة ، فقد تحددت أطر مساحات الاستقرار التي ستتخذها جميع البنى أساساً في القرى والمدائن ، وتم الانتقال إلى المستوطنات ، وولدت الهرمية ، وتأسس الدين ، وبرزت أولى المعابد ، واكتسبت الأثنية ملامحها في الوجود ، واتضحت معالم البنى اللغوية ، وتوطدت علاقات الجوار ، وكأن الإدارة قد شيدت أعظم مراحلها عبر الأخلاق ، وكأن المجتمع النيوليتي قد جزم بصيرورة الثورة الزراعية والقروية ، وبالتالي حسم أمور تأسيسها ، ولأول مرة نجد البنى

الاجتماعية المؤلفة لموضوع السوسيولوجيا البنيوية الأساسي ، تعرض لنا تكويناً ونشوءاً هو الأقوى والأوطد في الهلال الخصيب ، وما يزال هناك الكثير مما يجب تعلمه من حقيقة هذا التحول البنيوي والذي يستدعي اليوم التدقيق فيه كتمأسسات أصليه ، بل وبقدر ما يتم فحص تلك البنى كأول قيم مؤسساتية في التاريخ البشري ،فسيتم الحصول على نتائج سليمة بالمثل ، فيما يتعلق بتأسيس السوسيولوجيا البنيوية ، ويجب الإدراك جيداً أن السوسيولوجيا البنيوية الراهنة تعاني افتقاراً جديداً ل(علم المعنى)، أما إذا اعادت النظر في ذاتها كجزء من السوسيولوجيا العامة ، فقد تغدو تعبيراً قديراً عن علم المعنى .

الخاتمة:

على ضوء ما سبق ، نجد أن اللغة والثقافة المتأسستين في الهلال الخصيب تتسمان بمكانة عالية ، بكونهما المنبع الأصلي لموضوع قائم بذاته في حقل سوسيولوجيا الثقافة الأساسية ، فالمجتمع المشيد في هذه الأراضي يتميز بكونه صاحب أطول فترة، وإن الحزام الثقافي والحضاري الاجتماعي البارز بالارتكاز إلى الهلال الخصيب ،قادر على صون مرتبته في الصدارة ، مما لم يقض على حياة الإنسان بكوارث طبيعية أو مجتمعية تتسبب في زوالها بدرجة بليغة ،أما أن تبسط مدينة منحدرة من الثقافة الصينية أو السامية نفوذها كقوة مهيمنة ، فهو أمر صعب جداً على صعيد الواقع ، وإن لم يكن مستحيلاً نظرياً، بيدَ أن الثقافة الهندوأوروبية (بالتالي الثقافة الأم ،اللغة والثقافة الآرية) ، لم تفقد إطلاقاً طبائعها في الهيمنة ، رغم هذا القدر من (الغزو الإسلامي) و (الغزوات الكاسحة ذات المشارب المغولية)، وقد تبدأ الصين بشن هجوم جديد في المستقبل ،إلا أن احتلالها للثقافة الهندوأوروبية - ذات الاستقرار المنقطع النظير في جميع أنحاء العالم –أو الاستيلاء عليها ، أو إخضاعها للاستعمار أو الاستيطان يبقى احتمالاً هزيلاً ما لم تتلقّ دعماً إعجازياً من المؤثرات الخارجية كالكوارث الطبيعية ،والويلات المجتمعية القاضية خارج نطاق منطقة الثقافة الصينية .

الفهرس:

1-المقدمة.

2-أهمية قوس جبال طوروس - زاغروس، ودوره في خدمة البشرية.

3-دور الساميين والآريين في عمق التاريخ.

4-أهمية دور المجموعة اللغوية الثقافية الآرية عبر التاريخ.

5-التفسير السليم للحياة والتطور الاجتماعي النابعين من الهلال الخصيب.

6-شرح مضمون بعض المصطلحات:

الثقافة

الفترة الأطول

الفترة البنيوية

الفترات الوسطى والقصيرة

الوسط الكوانتي والفوضوي

الفترة الفلكية

7-التطورات الاجتماعية الحاصلة في الهلال الخصيب بحسب الرؤية السوسيولوجية.

8- الخاتمة.